

اليرموك: كارثة أكبر من مخيم

صبر درويش*

السلاح والمسلحون الفلسطينيون في مخيم اليرموك

I - مدخل إلى اليرموك

تتداخل المدن والأحياء والبلدات في جنوبي العاصمة دمشق، بطريقة يصعب الفصل فيما بينها، إذ يتوسط مخيم اليرموك منطقة جنوبي العاصمة، ممتداً من حيّ القاعة الميداني شمالاً حتى تخوم مدينة الحجر الأسود جنوباً، ويمتد شارع الثلاثين على طول المخيم من جهة الغرب، كما يمتد شارع فلسطين بموازية الجهة الشرقية لليرموك، متداخلاً مع حي التضامن شرقاً، حيث يلتقيان عند بلدتي يدا وببيلا جنوباً، بينما يلتقي شارع الثلاثين مع نهاية مخيم اليرموك وبداية مدينة الحجر الأسود، وتلتقي بساتين الحجر الأسود وحي القدم والعسالي مع بعضها لتشكل المساحة التي تقع خلف بساتين مدينة داريا حتى بلدة السيدة زينب أقصى الجنوب، وتسمى هذه المنطقة "المنطقة الجنوبية"، والتي يشكل مخيم اليرموك واحداً من أكبر التجمعات السكانية فيها، كما يشكل المخيم جزءاً من واجهتها من جهة دمشق، الأمر الذي يجعل المخيم أشبه بـ "الجيب" داخل المنطقة الجنوبية لدمشق، أو ما بات يُعرف في أثناء حصار المنطقة، وقبل أن يحاصر المخيم، بـ "رئة المنطقة الجنوبية".

منذ بداية الثورة السورية في آذار / مارس ٢٠١١، شكّل اليرموك عنصراً استراتيجياً بالنسبة إلى الأحياء المحيطة به؛ فهو يُعدّ واحداً من أكبر الخزانات التي ضمت عدداً هائلاً من الناشطين على اختلاف اختصاصاتهم وانتماءاتهم، كما أنه يشكل نقطة عبور المساعدات الإغاثية: الطبية والغذائية، في اتجاه أحياء الجنوب الدمشقي وبلداته. ومن المعروف أيضاً أن اليرموك تمكّن من استيعاب قسم كبير من النازحين الأوائل إلى مدينة دمشق، ولا سيما النازحين من مدينة حمص التي نزح منها في سنة ٢٠١٢ أسر عدت بالآلاف، وقسم منها تمّ تأمينه في اليرموك وبجهود أهلية.

* صحافي وكاتب سوري.

II - لماذا تسلّح مخيم اليرموك وكيف ومتى؟

في نهاية صيف سنة ٢٠١٢، انتشرت قوات تابعة لأحمد جبريل (القيادة العامة) في أغلب مداخل مخيم اليرموك، وانتشر مقاتلو المخيم في جميع أنحاء، بينما اكتفت قوات النظام السوري في الوجود في محيط اليرموك من جهة دمشق، أي من الجهة الشمالية من اليرموك، بالقرب من حي القاعة الميداني (حي الميدان)، وعلى تخوم حي التضامن من جهة شارع نسرين. وكان لانتشار السلاح في مخيم اليرموك، والدور العسكري الذي أدته الجبهة الشعبية - القيادة العامة، مقدمات وسياقات. ففي بداية الأمر، ظهر السلاح العلني في مخيم اليرموك، من جانب أطراف محسوبة على النظام السوري، وذلك في صيف سنة ٢٠١٢، حين سرت شائعات في المخيم والحجر الأسود والجنوب الدمشقي عامة، فحواها أن ميليشيا تابعة للنظام اقتحمت منطقة الأعلاف والمناطق المحاذية لحي القدم، وارتكبت أعمال قتل وذبح هناك.

استغل تنظيم القيادة العامة، والمرتبون بالأجهزة الأمنية، حالة الهلع التي سادت أوساط الأهالي في مخيم اليرموك، واندفاعهم لحماية المخيم بما توفر لهم من عصي وأدوات مطبخ، فظهرت في تلك الأيام أولى قطع السلاح التي جاءت في وقت انتشرت شائعات عن قتل جماعي في الأحياء المجاورة، وقد عُرف لاحقاً أن الأجهزة الأمنية هي من أطلقتها ضمن مسعاها لتوتير الأجواء، ودفع الأهالي إلى قبول فكرة التسلّح.

في تلك الأثناء، كلما كان الجيش النظامي يقتحم المناطق المحيطة بمخيم اليرموك، كانت تقع مناوشات ومصادمات أو عمليات عسكرية بين النظام والمعارضة المسلحة في محيط المخيم. وكان الجيش النظامي يقصف الأحياء المجاورة من كثرة سفیان الثوري التابعة لقوات النظام، وفي كثير من الحالات كان المخيم يقع بين الكثنة والأحياء التي تُقصف، ومنذ تموز / يوليو ٢٠١٢، بدأت القذائف تسقط على المخيم. بداية لم يكن الأهالي يعرفون إن كان ذلك يتم عن عمد أو عن خطأ، لكن تكرار قصف شارع الجاعونة، غلب الرأي - بحسب شهود تحدث الكاتب معهم - بأن النظام يعتمد ذلك، وأن قصف الشارع المذكور تحديداً كان بقصد إجبار الأهالي على النزوح منه، لأنه كان محاذياً لجبهة التضامن التي كان النظام يخوض منها مواجهة مع المعارضة المسلحة. كما وقعت عدة عمليات قصف طالت مربع شارع صفد، وشارع علي الوحش في منطقة العروبة، وسقط جُزءها عشرات المدنيين، كحالة عائلة "أبو الهيجاء" التي قُتل فيها أب وابنته بقذائف أطلقتها مدفعية النظام. وهذا الأمر ساهم بدوره في شحن المزاج العام في المخيم ضد قوات النظام، وفي تبرير مخاوف سكان المخيم من تسرّب الفوضى إلى أحيائهم، ومن أن الطريق باتت تمهد أمام قلة منهم لقبول فكرة حمل السلاح.

لكن الظهور الأبرز للسلاح، كان بعد قرار تشكيل اللجان الشعبية الذي رعته الاستخبارات السورية، وغطاه تحالف القوى الفلسطينية التابع للنظام والمسمى "تحالف دمشق". والعمود الفقري لتلك اللجان تشكّل من تنظيم أحمد جبريل وحركة "فتح" الانتفاضة، والصاعقة، إلى جانب بعض البعثيين. والجسم الأكبر تشكّل في البداية من الذين سجّلوا أسماءهم للحصول على أسلحة (بنادق آلية بولونية) دفاعية، مستشعرين الأخطار التي باتت تحقق بوجودهم. وقد تسلّح جزء كبير منهم من أجل الدفاع الذاتي، وحماية الأهل والأموال والجيران، من دون أن يكون معنياً بقتال المعارضة المسلحة بصورة خاصة، بينما تورّط قسم ضئيل

في سياقات التشبيح التي عمل تنظيم جبريل والاستخبارات على بنائها، كتفكيك عبوات ناسفة لا يخلو توقيتها وسرعة كشفها من الشبهات، وتصفية عدد من ضباط جيش التحرير الفلسطيني، ولاحقاً تصفية مجنّديه المخطوفين قرب إدلب، والذين تحدثت فصائل تابعة للمعارضة مؤخراً، بعد سيطرتها على مدينة إدلب، عن اكتشافها صوراً تثبت قتلهم في أحد أفرع الأمن، وقامت بنشرها في شبكة التواصل الاجتماعي "الفايس بوك".

إن الذين عايشوا تلك الفترة من صيف سنة ٢٠١٢، يدركون تماماً أن قوى المعارضة المدنية، وحتى العسكرية، الممثلة في المجلس العسكري لجنوب دمشق، لم تكن تنوي زجّ المخيم في أي شكل من أشكال الصراع المسلح، لا بل إن قوى المعارضة السلمية والمدنية والإغاثية تبنت اعتبار المخيم "ملاذاً آمناً"، وهو ما أعلنته تنسيقية مخيم اليرموك، بل إنها رفضت وحذرت من انتشار السلاح بين صفوف أبناء المخيم تحت أي حجة كانت. وبقي هذا شرخاً بين ناشطي الثورة ومؤسساتها من جهة، وبين الداعين إلى التسلح، من جانب النظام والفصائل التابعة له، أو من جانب "الثورة المسلحة" من جهة ثانية.

في ساحة شارع فلسطين آخر المخيم، نصبت قوات تابعة للجبهة الشعبية - القيادة العامة واحداً من أكبر حواجزها العسكرية، وذلك في المنطقة التي تفصل اليرموك عن حي التضامن من جهة الشرق، والذي كان يقع تحت قبضة تشكيلات سورية معارضة متعددة، وتفصله أيضاً عن بلدتي يلبا وببيلا من جهة الجنوب الشرقي، واللتي كانتا تقعان تحت سيطرة قوى المعارضة السورية. وحتى تلك الأثناء، أي في صيف سنة ٢٠١٢، لم يذكر حدوث مواجهات عسكرية كبيرة بين كتائب المعارضة وقوات جبريل؛ فمخيم اليرموك كان قد شكّل ملاذاً آمناً للمئات من الأسر السورية والفلسطينية الهاربة من مناطق المعارك، ومنفذاً مهماً لتمرير المواد الإغاثية المتجهة إلى جنوبي دمشق، كما كان مكاناً آمناً نسبياً لتحرك الناشطين المعارضين. وفي جولة قمتُ بها في تلك الأثناء برفقة قادة عسكريين تابعين لقوى المعارضة السورية، أتيح لي زيارة أحد مقارّ القيادة العامة، وتحديد ذلك الموجود في ساحة شارع فلسطين المذكور سابقاً. ويقدر ما يبدو الأمر غريباً، فإنه، فعلياً، كان هناك تواصل دائم بين قيادات من المعارضة السورية العسكرية، وبعض قيادات أحمد جبريل الميدانية؛ وقد أثير في تلك الزيارة العديد من النقاشات، وكان منها الأسباب التي دفعت جماعة أحمد جبريل إلى حمل السلاح، وكذلك تورطهم في الانتشار في مداخل اليرموك، على الرغم من أنه لم تنشب في تلك الأثناء صدامات بينهم وبين قوى المعارضة العسكرية.

وتحت ضغط قوى الحراك الشعبي المدنية والأهالي، كانت الحدود واضحة ومتفقاً عليها بشكل ضمنى بين جميع الأطراف: على قوات جبريل أن تبقى موجودة بعنادها الكامل في مخيم اليرموك، وعلى قوات المعارضة ألا توجد بسلاحها في المنطقة، إذ لا حاجة إلى الصدام بين الطرفين ما دام الجميع يحترم شروط هذا الاتفاق غير المعلن.

وخلال الزيارة المذكورة سابقاً، قال أحد قيادات جبريل الميدانيين، المعروف بأبو سمرة: "علاقتنا مع شباب الجيش الحرّ طيبة، ولا يوجد خلاف بيننا، ونحن حياديون في هذا الصراع. همّنا حماية اليرموك، ومن جهة أخرى لا أحد من قوات المعارضة له مصلحة في دخول المخيم، ما دام المخيم يشكّل رئة المنطقة الجنوبية بالكامل، ونحن لم ولن نغلق هذه الرئة بوجه قوى المعارضة".

غير أن حقيقة الأمر لم تكن بهذا القدر من الشفافية، فقرار تسليح الشبان في مخيم اليرموك، كان قراراً ملغوماً بما جرّه على المخيم وشبانه من ويلات ليس أولها تحويل المخيم إلى طرف في الصراع وزجّه في معارك لا ناقة له فيها ولا جمل، ولا آخرها توفير الحجة المواتية من أجل فرض قوات الأسد حصارها على المنطقة بالكامل، بحجة انتشار السلاح. وفي سؤال إلى أحد المقاتلين من جماعة جبريل عن أسباب حمل السلاح، أجاب أن تلك الجماعة عرضت على الشبان حمل السلاح بحجة حماية مخيم اليرموك، وكان الأمر مقنعاً بالنسبة إلى بضع عشرات تمّ تسليحهم ونشرهم على الحواجز في مداخل المخيم. وأكد الشاب أنه ليس عضواً في تنظيم الجبهة الشعبية - القيادة العامة، حتى إنه أميل إلى تنظيم "فتح" (كما عقب ساخراً).

وبالنسبة إلى الشبان الذين انخرطوا في ميليشيا القيادة العامة، فإن تصوراتهم كانت واضحة إلى حد ما، إذ يقول أحد الشبان: "جرى توزيع السلاح على كل من رغب في حمل السلاح، وشجّع أحمد جبريل على ذلك، فكان يكفي أن تسجّل اسمك وتوقع على وصل استلام حتى يتمّ تسليمك بندقية مع ذخيرتها." ويضيف الشاب: "من المستحيل أن نرفع البندقية بوجه المعارضة، فنحن مع الشعب السوري قلباً وقالباً، وحين يحين الوقت المناسب سنعلم في أي اتجاه سنوجهها."

ويقول أحد الناشطين في مخيم اليرموك، وقد نقلنا كلامه بلهجته على أمل إظهار شحنته النفسية المرافقة لكلماته: "ورّعوا سلاحاً على كل من أراد، وصار هؤلاء إشي يبيع الذخيرة والسلاح للمعارضة المسلحة حول المخيم، وإشي صار يشتبك مع هاي المعارضة.. فيما بعد انشقّ جزء من هؤلاء المسلحين عن أحمد جبريل، وانضموا إلى المعارضة المسلحة.. فيما بعد عادوا وانشقوا عن المعارضة المسلحة وانضموا للذين يحاصرون المخيم (جبريل والنظام). السلاح كان فحاً تعامى الجميع عنه، وحاول الكثير تغطيته. وبالنتيجة المدنيون هم من دفعوا الثمن ومن حوصروا بحجته.. السلاح كان رداً على الملاذ الآمن (الذي أعلنته تنسيقية مخيم اليرموك، وتبنته القوى المدنية)، وهدفه تحويل مخيم اليرموك إلى ما يشبه حالة مخيم عين الحلوة (في لبنان)، عن سبق إصرار وتصميم."

زجّ اليرموك في أتون الحرب

عملت جهات متعددة على زجّ مخيم اليرموك في الصراع الدائر، غير أن العامل الحاسم كان قرار النظام السوري الذي قام بالتسليح العشوائي عبر تابعين له، وقصف المخيم بطائرات الميغ عندما كانت الميليشيا التابعة له تسيطر عليه. وخلال الأشهر السابقة لقصف المخيم كان النظام يدفع في اتجاه فتنة بين المخيم ومحيطه، بينما كان بعض القيادات الميدانية التي كانت لا تزال تحظى ببعض الصداقة من كلا الجانبين (المعارضة وجبريل)، ينظر إلى اليرموك نظرة استراتيجية تسعى إلى وضعه خارج إطار الصراع، ويرى في ذلك خياراً استراتيجياً ربما تكلف خسارته المعارضة غالياً. ويؤكد ما سبق، رفض عمر أبو عبيدة، قائد منطقة الحجر الأسود، وبشكل مطلق، دخول مخيم اليرموك، إذ كان يقول: "إن اليرموك خط أحمر." وكان قائد كتيبة "جند الله" (بيان مزعل) وهي إحدى مكونات "لواء الحجر الأسود"، والذي أدى لاحقاً دوراً أساسياً في اجتياح المخيم، قبل أن يعود إلى عمله في الأجهزة الأمنية،

فيقود المعارك ضد المعارضة المسلحة، يحرّض ضد هذا التوجه. قُتل أبو عبيدة فيما بعد، وتعاضم تأثير المدعو بيان المزعل وجماعته، وتوفر المناخ الملائم لاقتحام اليرموك. ومع سيطرة بيان مزعل على القرار عملياً في مدينة الحجر الأسود، تغيرت الأحوال وصار هناك اشتباكات متواترة بين مسلحين تابعين للنظام ومسلحي المعارضة. وفي ١٤ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٢، حدثت توترات جزاء تصرفات كتيبتّي "صقور الجولان" و"جند الله"، التابعتين لـ "لواء الحجر الأسود"، وعلى ضوء هذه الأحداث، انشقّ المدعو راتب النمر مع نحو ٦٠ مقاتلاً من القيادة العامة، وانتقل إلى القتال في شارع العروبة المتاخم لمدينة الحجر الأسود. وبحسب الشهادات، اشتبك النمر مع ميليشيا القيادة العامة، واستمرت الاشتباكات حتى ١٥ من ذلك الشهر، وتصاعدت حدة الاشتباكات بشدة، وفي ١٦ من الشهر ذاته قصف طيران الميغ المخيم، على الرغم من أنه كان لا يزال تحت سيطرة الميليشيا التابعة للقيادة العامة، وفي إثر ذلك دخلت "صقور الجولان" و"جند الله" إلى أطراف مخيم اليرموك، وفي ١٧ من الشهر دخلت "أبابيل حوران" وباقي الكتائب إلى المخيم، فانسحب مقاتلو جبريل منه. بعد دخول لواء "صقور الجولان" إلى المخيم ركزت هذه الميليشيا اهتمامها على نهب منازل المخيم ومتاجره، والاعتداء على الأهالي، فاتجه ناشطو المخيم، ولا سيما تنسيقية مخيم اليرموك ومن اصطف معها، وفي مقدمهم الشهيدان أحمد كوسي ومنير الخطيب، إلى مواجهة نهب المخيم، وهو الشقاق الذي وقع وسيبقى موجوداً بين الناشطين الفلسطينيين، وبين "صقور الجولان" ومجموعات أخرى محسوبة على المعارضة. وفي الوقت نفسه ظهرت مجموعات مسلحة بدوافع مغايرة.

III - أهم المجموعات العسكرية في مخيم اليرموك،

والدوافع الشخصية لإنشائها

ذكرنا أن هناك اختلافاً في الأسباب التي أنتجت المجموعات المسلحة المعارضة الفلسطينية، وإن كانت تشترك في كونها غالباً تشكّل ردة فعل على ما اعتبره كثير من الفلسطينيين، استهتار النظام السوري بدم الناس، ومنهم الفلسطينيون الذين أرادهم وقوداً في حربه على الشعب السوري. كما أن كثيرين من المسلحين الفلسطينيين الأوائل كانوا يهجون بفكرة "حماية المخيم"، ليس فقط من النظام السوري الذي يعارضونه، وإنما أيضاً من المجموعات المعارضة "غير المنضبطة" كما توافق شهودنا على تسميتها. غير أن هناك أسباباً أخرى منها: الأيديولوجي، والإسلامي تحديداً، والذي تنامي مع الوقت؛ البحث عن الزعامة، وهو ما وجدناه يفسر اندفاع بعض قادة المجموعات الأولى؛ الرغبة في الانتقام، والتي نتجت من سلوك النظام السوري الدموي؛ الانشقاق عن جيش التحرير رفضاً للمشاركة في قتل المدنيين وحصارهم، والرغبة في حمايتهم، وهو السبب الرئيسي لقادة "لواء أحرار جيش التحرير" وعناصره. وأهم هذه المجموعات المسلحة المعارضة الفلسطينية هي: "كتائب أكناف بيت المقدس"، و"لواء زهرة المدائن"، و"لواء العهدة العمرية"، و"لواء جيش التحرير الفلسطيني" المنشق، وبعض المجموعات الأخرى، فضلاً عن انضمام فلسطينيين إلى التشكيلات السورية كـ"أبابيل حوران" و"جبهة النصر" وغيرهما.

أ - اللجان الشعبية المسلحة التابعة للجبهة

الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة:

في ظل إنفاق مالي وتجهيز تسليحي خفيف وصل تعداد اللجان داخل اليرموك إلى نحو ٢٥٠٠ عنصر، وبعد قصف النظام السوري بطيران "الميع" جامع عبد القادر الحسيني في ١٦ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٢، ودخول "لواء الحجر الأسود" المخيم، انهارت لجان جبريل وانسحبت بقاياها من المخيم. وقامت الأجهزة الأمنية بإعادة بنائها خارج المخيم، بحيث صارت جزءاً عضوياً من تنظيم القيادة العامة، وأصبحت أحد أبرز التشكيلات العسكرية الفلسطينية التي تساهم في حصار مخيم اليرموك من الجهة الشمالية، وتسيطر على بعض الأبنية في مدخل المخيم.

ب - ميليشيات تنظيم "فتح" الانتفاضة:

تعرّض هذا التنظيم لتهديد وجودي مع وفاة مؤسسه "أبو موسى" في مطلع سنة ٢٠١٣. وعلى الرغم من تسارع الوفود التي وصلت إلى دمشق من رام الله باسم منظمة التحرير الفلسطينية، من أجل مناقشة مصير التنظيم بعد وفاة أبو موسى، فإن التنظيم الذي كان يعاني وجوداً بنيوياً ضعيفاً أصلاً تمكّن من التماسك في ظل الحاجة الماسة إلى مجموعات داعمة للنظام مع التطورات الميدانية التي استنزفت قوى النظام. ومع أن وفد المنظمة استرجع بعض "تركة" أبو موسى، واستعاد بعض العقارات بتسوية ما مع النظام السوري، والتي كان تنظيم أبو موسى قد تملكها بعد الانشقاق في سنة ١٩٨٣، إلا إن التنظيم استعاد وجوده وبقوة أكبر مما سبق من خلال انخراطه في العمل العسكري لمصلحة النظام السوري، وخصوصاً في بعض المخيمات مثل اليرموك والحسينية والسيدة زينب.

وتوجد حالياً قوة من ميليشيا التنظيم على مدخل مخيم اليرموك، وتقدّر أعداد أفرادها ببضع مئات، وقد استولى مؤخراً على المربع الواصل من خلف مركز حلوة زيدان حتى محيط جامع الرجولة شمالي مخيم اليرموك خلال أحداث دخول "داعش" إلى المخيم، إذ تمكن من السيطرة على هذه المنطقة مع انشغال المجموعات داخل المخيم بقتال "داعش". ومن المؤكد أن تمويل التنظيم الجديد الذي مكنه من استعادة بناه، مرتبط مباشرة بتطور الأحداث في سورية، وبالتالي، فإنه مرتبط بالتمويل العام للجماعات التي تقاتل لمصلحة النظام داخل سورية. ويسيطر هذا التنظيم، بالاشتراك مع القيادة العامة، على مخيم الحسينية، ويمنع أهالي المخيم من العودة إليه على الرغم من أن النظام استعاده من يد المعارضة منذ نحو عامين.

ج - لواء زهرة المدائن:

المقاتلون المنضوون في "لواء زهرة المدائن" هم في أغلبيتهم من الفلسطينيين، وكان هذا اللواء يضم ٣٠٠ مقاتل تقريباً، وهو من أول الفصائل العسكرية المعارضة التي تشكلت على أرض مخيم اليرموك، وكان يقوده اللواء خليل زعموت المعروف بأبو هاشم، والذي كان له دور بارز في مفاوضات الهدنة التي سُميت "هدنة تحييد المخيمات الفلسطينية". وقام مقاتلو اللواء بالاشتراك مع قوات النظام السوري، كما ساهموا مع باقي الفصائل

المقاتلة في صدّ المحاولات المتكررة للمليشيات التابعة للنظام للتسلل إلى داخل المخيم. وانضم معظم مقاتلي "لواء زهرة المدائن" فيما بعد إلى تشكيل عسكري آخر هو "ألوية العهدة العمرية"، واتجه قلة منهم إلى "كتائب أكناف بيت المقدس" عند تشكيلها.

د - لواء العهدة العمرية:

تأسس "لواء العهدة العمرية" نتيجة اندماج أغلبية مقاتلي "لواء زهرة المدائن"، و"كتيبة الشهيد يوسف شموط"، ومجموعات صغيرة يغلب عليها الطابع الفلسطيني. قاد "لواء العهدة العمرية" الفلسطيني أبو هاني شموط، وهو من التجار المعروفين سابقاً في المنطقة، وقد تجاوز عديد "لواء العهدة العمرية" الـ ٢٠٠ مقاتل، انتشروا على نقاط متعددة في محيط مخيم اليرموك.

ونفذ "لواء العهدة العمرية" مجموعة من العمليات العسكرية بالتنسيق مع "ألوية أبابيل حوران"، والتي أوقعت العديد من القتلى في أوساط قوات النظام السوري. وكان "لواء العهدة العمرية" أيد الهدنة بين قوى المعارضة والنظام السوري، والتي عرفت مفاوضات ماراتونية لم تصل حتى الآن إلى نتيجة نهائية. وقد تفكك اللواء بالتدريج.

هـ - كتائب أكناف بيت المقدس:

كانت "كتائب أكناف بيت المقدس" تضم ٣٥٠ مقاتلاً، ١٥٠ منهم مسلحون. وهي واحدة من أكثر التشكيلات العسكرية تنظيماً وتدريباً في محيط دمشق، ويشكل الفلسطينيون فيها، بحسب شهودنا، الأغلبية العظمى من مقاتليها، كما يجري الحديث عن تبعيةها لتنظيم حركة "حماس" الفلسطينية. ومن الشائع أن العديد من كوادر حركة "حماس" السابقين أشرفوا على تدريب عناصرها وقيادة أبرز عملياتها العسكرية، غير أن حركة "حماس" نفت هذه العلاقة بشدة.

ومن أبرز قادة "كتائب أكناف بيت المقدس": محمد زغموت المعروف بـ "المشير"، وهو واحد ممن كانوا مرافقين فيما مضى لرئيس المكتب السياسي لحركة "حماس" خالد مشعل؛ نضال أبو العلا المعروف بـ "أبو همام"، وهو أيضاً من حركة "حماس" سابقاً؛ القائد زكريا أحمد المعروف بـ "أبو يحيى". وعرفت الأكناف سلسلة اغتيالات استهدفت أهم قادتها، وأبرزهم: أسامة أبو حبل المدعو "أبو العبد"، أكرم سماك؛ أبو عادل السهلي.

كان مقاتلو "كتائب أكناف بيت المقدس" ينتشرون على عدة نقاط في المخيم، أهمها تلك الممتدة على شارع الثلاثين غرب المخيم، وبعض النقاط العسكرية من جهة مخيم فلسطين. ومن أهم العمليات التي قامت بها، فضلاً عن المعارك التي خاضتها على أرض مخيم اليرموك، تحرير التل الغربي في محافظة القنيطرة في ١٠ / ٤ / ٢٠١٤.

كما عملت "كتائب أكناف بيت المقدس" على تأسيس أكاديمية للتدريب العسكري، ارتكزت مهمتها على تدريب المقاتلين وتنظيمهم، بهدف "تدريب وتأهيل المجاهدين جسدياً وفكرياً وعسكرياً" كما ورد في بيان صادر عن الكتائب، وذلك بإشراف قادة عسكريين يشاع أنهم كانوا ينتمون إلى حركة "حماس".

وقد خرّجت الأكاديمية عدداً من الدورات التابعة لتشكيلات عسكرية معارضة متعددة،

ك"ألوية الحبيب المصطفى"، ودورات لـ"ألوية شباب الهدى" في الغوطة الشرقية، و"لواء البراء" في المنطقة الجنوبية، و"لواء هارون الرشيد" في حي جوبر الدمشقي. وساهمت "الأكناف" بدور محوري في محاولات ضبط الوضع داخل المخيم، فهي من قاد تحالفاً لإخراج "لواء الحجر الأسود" من المخيم، كما قامت، بالتحالف مع بقية مكونات "الرابطة الإسلامية" و"لواء أحرار جيش التحرير الفلسطيني"، بإخراج "داعش" من المخيم. وساهمت كذلك في المساعي للوصول إلى اتفاقية مع النظام السوري بشأن المخيم، في سياق ما عُرف بـ"الهدن" في المنطقة الجنوبية من دمشق، وهو ما كاد يحدث في محطات متعددة قبل أن يفسده النظام السوري. وقد خُرب في آخر محاولة قبل يومين من موعد التنفيذ بسبب اجتياح تنظيم "داعش" متحالفاً مع "جبهة النصرة"، ومع مجموعة "الكراعين" ومجموعة "الزعاطيط". وبالنتيجة، حُصرت "الأكناف" في منطقة ضيقة جداً بين المجموعات المسلحة في المخيم، والميليشيات التابعة للنظام السوري.

و- لواء أحرار جيش التحرير الفلسطيني:

يُعتبر "لواء أحرار جيش التحرير الفلسطيني"، المجموعة الأكثر انضباطاً. وقد عُرف عن مقاتليه جرأتهم، وهو ما جعلهم بشكل دائم في طليعة الصفوف في المعارك، الأمر الذي أدى إلى الاستنزاف الدائم للواء. وقد حاول اللواء إنشاء "مخفر مدني" في المخيم بالتعاون مع "تنسيقية مخيم اليرموك"، لكن بيان مزعل قام بمواجهته مدافعاً عن الفوضى التي ساهم هو ومجموعاته بشكل أساسي بإشاعتها.

وكان اللواء عند تأسيسه يضم ١٥٠ مقاتلاً تقريباً، يُشاع أنه لم يبقَ منهم في قيد الحياة إلا ٢٠ مقاتلاً. وكان العقيد الركن خالد إسماعيل الحسن يقود اللواء إلى ما قبل اجتياح المخيم من طرف داعش، غير أن جهات مجهولة قامت باغتياله.

وكان العقيد الحسن قد انشقَّ عن جيش التحرير الفلسطيني "قوات القادسية"، وهو قائد كتيبة "٤٢١ صاعقة"، في نيسان / أبريل ٢٠١٣، وشكّل مع مجموعة من رفاقه من الضباط وصف الضباط والجنود هذا اللواء، ومنهم الملازم أول إياس نعيمة (قُتل بانفجار صاروخ)، والملازم إيهاب قاسم، والملازم محمد خليل، والملازم باسل علي، والملازم محمد أسعد، فضلاً عن مجموعة أخرى من صف الضباط والأفراد.

وإلى حد بعيد، يمكن القول إن اللواء انتهى، فمعظم من فيه قُتل إما في الاشتباكات، وإما اغتيالاً.

ز- مجموعات أخرى

وإلى جانب التشكيلات العسكرية المذكورة سابقاً، يوجد في مخيم اليرموك العديد من التشكيلات والمجموعات الفلسطينية الأخرى، منها: "القيادة العامة - الحرة" التي انشقت عن القيادة العامة، لكن مقاتليها سرعان ما عادوا إلى تنظيمهم السابق وشاركوا في حصار المخيم؛ "لواء أحرار اليرموك"، ومقاتلوه من الفلسطينيين، وضم ٣٠ - ٣٥ مقاتلاً، وقائده أبو ربيع الكرعوني، ومساعدته أبو تائر اللبواني؛ مجموعات صغيرة أخرى كمجموعة "الزعطوط" التي سُميت على كنية مؤسسها "الزعطوط" الفلسطيني الأصل، وتضمّ بضع عشرات من

المقاتلين معظمهم ممن كانوا منتمين إلى منظمة "فتح" الفلسطينية. وهناك أيضاً مجموعات صغيرة تم حلّها بعد أسابيع قليلة من دخول المعارضة المسلحة إلى المخيم، مثلاً: كتيبة "فلسطين" التي كانت تضم ٢٠ - ٣٠ مقاتلاً توزعوا على باقي التشكيلات بشكل فردي؛ كتيبة "الفهود السود" التي كانت تضم ٢٠ - ٣٠ مقاتلاً توزعوا على باقي التشكيلات بشكل فردي أيضاً؛ "كتيبة شهداء اليرموك"؛ كتيبة "المعتصمون بالله" التي كانت تضم ٥٠ مقاتلاً، وقد انحلت بالكامل، وانضم قسم من مقاتليها إلى "جبهة النصر".

IV - خاتمة

مع اجتياح مخيم اليرموك من طرف تنظيم "الدولة الإسلامية"، المسمى كرهاً "داعش"، في ١ / ٤ / ٢٠١٥، وبالتعاون مع "جبهة النصر"، خُربت الاتفاقية التي كانت "أكناف بيت المقدس" تحاول الوصول إليها منذ فترة طويلة. وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يدل على أن النظام السوري كان مستعداً لتنفيذها، وهو لم يطبق غيرها من الهدن التي تمّ الوصول إليها في محطات سابقة، فإن تحالف "داعش" مع "جبهة النصر"، وبدعم من مجموعات صغيرة، قام هذه المرة بالاشتباك مع "الأكناف"، وإلى حد بعيد تمّ إنهاؤها، وحصرها في بضع "حارات"، بحجة رفض الاتفاقية. غير أن تنظيم "داعش" تراجع بعد أيام عن مساحات كبيرة لمصلحة "جبهة النصر"، وقدمت هذه الأخيرة ضمانات لحماية إدخال وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى ("الأونروا")، مساعدات إلى المخيم، الأمر الذي يمكن عدّه خطوة في اتجاه رغبتها في إدارتها لاتفاقية مع النظام السوري بدلاً من "الأكناف". ويبقى مخيم اليرموك، أسوة ببقية مدن وأحياء وقرى سورية كثيرة، يعيش ما تفرزه الحرب في سورية من مأس. ■

المصادر

- ١ من شهادة الباحث الفلسطيني طارق حمود.
- ٢ المصدر نفسه.
- ٣ من مشاهدات الكاتب، علاوة على شهادات أبرزها شهادة فاروق الرفاعي.